

الشباب والخدمة الاجتماعية

أريد ١٠,٠٠٠ متطوع ومتطوعة

لمدينة القاهرة وحدها !!!

الخدمة الاجتماعية طابع العصر الحديث ، وقد اتسع مداها وزادت أهميتها بعد الحرب العظمى الماضية وما خلفته من بؤس وشقاء وفقر وأوبئة وبجاعات وأمراض : ثم في هذه الحرب وما تجره من ويلات لجميع السكان .

والشباب هو العنصر الغالب في القيام بهذه الخدمة ، لأن الشباب سن الفيض في القوة والفضل في العاطفة وهو في موسم النهوض بالأعباء العامة ، قبل أن تتقدم السن ، وتنقص المقدرة ، ويتزوى الفرد في شئونه الخاصة وأعبائه الشخصية التي تزايد كلما تزايد العمر وتقدمت السنون .

وفي الشاب والشابة نشاط زائد ، ولديهما متع من الوقت ، فإذا لم يجد هذا النشاط مجالا ما يباين ينفق فيه ، انصرف إلى المجالات الناسدة ، والفراغ والشباب حين يجتمعان تكون لهما دائما عواقبهما الوخيمة التي نص عليها الشاعر في بيته القديم المشهور .

والخدمة الاجتماعية على اختلاف ضروبها وسيلة من خير الوسائل لانفاق النشاط وشغل الفراغ ، وهي وسيلة ميسرة لكل شاب ولكل فتاة ، وهي لتسلا على أثرها الاجتماعي المطلوب — ترفع النفس وتجعل للحياة قيمة في نظر المشتغلين بها ، وتلهمهم كثيرا من الفضائل التي لا يحس بها الفرد إلا حين يهتم بشؤون المجتمع ويخرج من سجن الفردية البغيض .

وفي بلد كصر يجد كل شاب وكل فتاة المجال واسعا لكل ضروب النشاط الاجتماعي ، فتعليم الأميين وإنقاذ المشردين ، ومعاونة المحتاجين ، ودراسة حال الأحياء الفقيرة ، وإرشاد الفقراء إلى وسائل لزيادة الدخل ، وإعداد الفتيات المشردات والفقيرات لحياة المجتمع ومعيشة البيت ، واستنقاذ المدميين والغواة ... إلى عشرات من هذه الخدمات الاجتماعية كلها وسائل ميسورة لإرضاء التبعة الانسانية الخيرة ، وللقيام بالواجبات الاجتماعية المتنوعة .

لدينا ألوف من الشبان والشابات يضيقون بالفراغ فهم دائما مشغولون بمعركة "قتل الوقت" يقتلونه ويقتلونه بالجلوس في المقاهي وبالزيارات التي لا ضرورة لها ، وبقراءة الورقات الساقطة والمحسلات الرخيصة والروايات التافهة ، وبالفيل والقال وتلج أخبار الناس وبأيذاء خلق الله في كثير من الأحيان .

وكل هذه مظاهر للفراغ وللنشاط الزائد والوقت المتسع. ولو وجد هذا النشاط منفذا إلى أعمال الخير لتقضى فيها ولأننتج نتائجها الطيبة !

ولدينا في الوقت نفسه وفي القاهرة نفسها — لا في الريف البعيد — مئات من الأحياء الفقيرة تصلح مزعرة تجريبية لجميع أنواع الخدمة الاجتماعية ، أتى تشغل الفراش ، وترفع النفس عن التفاهات وتستغرق الوقت لدى تقناله كل يوم فيما لا يفيد !

وكثيرا ما نشرت على صفحات هذه المجلة أوصاف لبعض هذه الأحياء تستدر الشفقة وتستنهض الحمم للخدمة ، وقد خطر لي قبيل عبد الأضيق الماضي أن أقوم بجولة شخصية في حي من هذه الأحياء ، إلى هؤلاء الشبان والنشبات أسوق بعض مشاهدت بدون مبالغة — فما أنا في حاجة إلى المبالغة والواقع وحده يكفي — لعن هذه الصور أن تغفرهم وتحفرهم إلى أداء الواجب المفروض ، الذي ينهض به الشباب في بلاد العالم المتحضر ، بلا حث ولا توجيه .

خلف المسجد الحسيني وأبنية الحمامة الأزهرية الحديثة يقع حي يسمى "شارع الكفر" يدخل إليه الانسان من مدخل ضيق بشوارع المنزلدين الله (الدراسة) . ومن هذا المدخل دخلت ومعى رفيق نجوس خلال هذا العالم المتراعى الأطراف الذي يسمى "كنز الطمايين وكفر الزغاري . وحارة العطاوف"

وما أحب أن أذكر تفصيلات مشاهدتنا في خلال ساعتين كاملتين مررنا فيهما بالدروب الرئيسية إذ كان الدخول إلى الأزقة والعطافات الفعية نوعا من المستحيل لمن يلبس هذا وجوربا وينطلقون لا بد من التضحية بها جميعا إذا خاطرنا في هذه الأحوال والقاذورات المتعفة والفضلات الانسانية والحياوية التي تغوص بها الرجل — لا القدم وحدها — في كل خطوة بالطريق .

اخترنا إذن أن نضحي بأحديتنا دون الجوارب ودون البنطلون فتبعنا الطرق الرئيسية في هذا العالم المقل المجهول . وفي هذه الطرق الرئيسية قضينا ساعتين في المرور والطواف ، وكان ذلك يوم وقفة العيد .

هذه الطرقات الرئيسية من الطين وهي مرتفعة عن مداخل البيوت بنحو نصف متر ، فمعظم البيوت ذات عتبة يهبط منها الداخل نظرا لارتفاع الطريق . وعلى أبعاد قريبة في هذه الطرقات يرى السائر بعض أكوام القمامة فضلا على الفضلات الحيوانية والإنسانية . ويرى المساعز والنجاج مربوطة في الطريق ، ويرى عجائز الحى وبعض المقعدين والمكفوفين مسندين إلى الجدران القائمة في الطريق كذلك ، ويرى الذباب والبعوض والصراصير والحنافس جميعها ترح في أو حول أكداس القمامة .

ولأنا : ألا تؤخذ هذه القمامة من هذه الطرقات ؟ وأجابنا السكان : كلا ! ومن يأخذها ؟ قلنا وأين تذهب إذن ؟ قالوا تبعثر في الطريق وينزل عليها المطر في الشتاء أو تعصب عليها المياه المتخلفة من حياة البيوت (إذ لا توجد غالبا مراحيض ولا مجار عامة) ويدوس عليها المساة فتلتصق بالأرض وتصبح جزءا من قشرتها ... وهنا عرفنا سمر ارتفاع الطرقات عن البيوت !

للبيوت دهاليز معتمة مرطوبة لا يتطرق إليها الهواء، وطبيعي ألا يتطرق إليها النور ولا منافذ لها مع ضيقها وطولها، حتى تنتهي إلى الحجرات الأرضية الممتعة أو إلى الفناء بين هذه الحجرات .

في بعض هذه البيوت رأينا مصابيح البترول من ذوات الفتيل بلا زجاج مشعلة من الداخل - والوقت ظهر - ليستطيع السكان أن يبصروا أنفسهم ويقضوا شئونهم في داخل هذه الدهاليز والحجرات السحيقة !

وفي بعض هذه البيوت شاهدنا على ضوء تلك المصابيح الخائفة رجالا ونساء وأطفالا وهم جميعا غرايا ! - وليس في هذه اللفظة مجاز إنما هي الحقيقة - لقد كان العيد على الأبواب نفلح الأطفال والرجال والنساء ملابسهم لتغسل - وليس لها بطبيعة الحال بديل - فأما النساء بخسن وأمامهن "الطشوت" يغسلن ، وقد سترن أوساطهن فقط بخرق صغيرة ، وأما الرجال فانظفوا على أنفسهم وتستروا بانظوائهم ، وأما الأطفال فقد انطلقتوا بلا حرج من العرى البرى !

وقد شاهدنا وشاهدنا مما لا أريد أن أؤذي به شعور القراء ، وليس من غرضي نشره لمصصة الشفاء عنه . ونحن أردنا أن نتقصى شؤون هؤلاء الناس قالت لنا فتاة من الحى . " أنتم رجال ولا تستطيعون أن تدخلوا البيوت لمعرفة ما فيها ، فابحثوا نيات وهن يستطعن الحصول على جميع المعلومات والمساعدة إذ كنتم تريدون بالمعرفة المساعدة " .

كانت فتاة يبدو عليها شيء من الثقافة ولولا أننا في حى بلدى لاتخذناها لنا دليلا ولسرنا معها في ذلك العالم المجهول ، ولكن تقاليد الحى لا تسمح بمثل هذا ، ولا بد من متطوعات يدخلن البيوت فبأمن الناس هن ويكشفون هن المستور .

لو وجدت الفتاة التي تضحى بمحذاتها الثمين وجورها الرقيق ، ولو وجد الشاب الذي يتحمل وساخة الحذاء والبنطلون ، ولو وجد المتطوعات والمتطوعات الذين لا تضيق صدورهم بالروائح الكريهة والذين يصبرون على مكاره السير في هذه الأحياء ومكاره الدخول لهذه البيوت ، لاستطاع الجميع أن يساهموا في إنقاذ هؤلاء المكويين .

ويقينى أن هذه الأحياء وسكانها لو وجدت رعاية إنسانية من هؤلاء المتطوعين بدراسة حالة كل بيت ، ومعرفة موارد كل عائلة ، وطريقة ارتزاقها ، وأنواع ضرورياتها ، لأمكن النهوض بها بدون تدخل من السلطات المسؤولة .

إن إرشاد هؤلاء السكان إلى بعض القواعد العجيبة كفتح بعض النوافذ وقتل القمامة المتزلية بعيدا عن الطرقات ، وعدم التبرز بجوار الجدران ، وتوزيع بعض المواد اللازمة للتنظاف كالصابون والملابس ، ومنح بعض الضروريات كالأرز والعدس ... ثم محاولة

إرشاد الأهالي إلى موارد رزق جديدة تزيد من دخلهم وترفع مستواهم العقلي بالتنوير والتعليم الممكن ... إلى مثل هذه الخدمات كفيل بتغيير هذه الحالة المؤذية للشعور الإنساني .

ومكاتب الخدمة الاجتماعية مشروع جليل من هذه الناحية ، ولكنه في حاجة إلى المتطوعين والمتطوعات في جميع الأحياء ، و ١٠,٠٠٠ متطوع ومتطوعة هو الحد الأدنى في نظري لدراسة حالة جميع السكان في جميع الأحياء المحتاجة للدراسة .

وإن وزارة الشؤون الاجتماعية لتؤدي عملا جليلا حين تولى هذا المشروع عنايتها الكاملة ، وحين تعممه في جميع أنحاء العاصمة بل العواصم والقرى جميعا ، فنى كل مدينة وكل قرية شباب فارغ ووقت ضائع ، وبجوارهما بؤس مخم ومخناجون للخدمة الاجتماعية . وقد لا يكون هذا علاجا أساسيا للداء الأصيل ، ويكون العلاج الحاسم هو زيادة الموارد الفردية والموارد العامة حتى تخفى هذه المظاهر المؤذية من حياة البلاد ، ولكن كم ياترى ينقضى من الوقت ويبدل من الجهود لتحقيق هذا العلاج الحاسم ؟ لأنه ولا شك وقت طويل وجهد شاق ، والحالة الواقعة لا تحتمل الانتظار حتى تتحقق هذه الآمال العريضة ، فمن الواجب أن نجرب الآن كل وسيلة محدودة لتغيير الواقع الذى نراه .

وإننا لنذكر بالخير وزارة الصحة في هذا المقام على مشروعها الذى يقضى بإزالة الأحياء القذرة الموبوءة في مشروع السنوات العشر ، ولكننا نخشى أن تكون إزالة هذه الأحياء كلها في حاجة إلى مبالغ ضخمة جدا لا تحققها الميزانية العامة إلا بعد زمن طويل .

وعلى أية حال ، لا ينبغي لنا أن نبقى مكتوفى الأيدي في انتظار تلك المشروعات الضخمة ونحن نرى مواطنين أعزاء يمرون هذه الحياة في القاهرة عروس الشرق وعاصمة الدارة ... !

إد في عنق كل شاب وكل فتاة دينا لا ينقضى حتى يزور حيا من هذه الأحياء المنتشرة في أحياء العاصمة ويشارك في تقديم خدمة اجتماعية من الوقت أو من المال أو من الجهد في سبيل هؤلاء المواطنين الأعزاء .

وإن في عنق كل ثرى وكل ثرية دينا لا ينقضى حتى يستجيب لدعوة المتطوعين والمتطوعات من أجل مكان هذه الأحياء المحرومة من الضرورات . ولن يغفر لنا الوطن ولن يغفر لنا العالم المتحضر أن نغمد عن هذه الخدمات الاجتماعية في ارتقاب المشروعات الحكومية الضخمة التى قد يطول انتظارها ، أو في ارتقاب المعجزات السماوية التى تنقذ هؤلاء الألوف من المواطنين .

ولندكر دائما أن الخدمة الاجتماعية هى السمة البارزة للعصر الذى نعيش فيه ، وأنها مقياس لا يخطئ على درجة التحضر ومقدار الرقى العام ، وأن الأجانب يزورون هذه الأحياء ويحفظون مجموعات من الصور الفوتوغرافية لمشاهداتهم فيها ثم يحكون علينا مما يشاهدون وهو اصدق مما نحاوله بالدعاية والإعلان !